الأنساق الثقافية المضمرة في الشعر الجاهلي. شعر الصعاليك نموذجا

The Implicit Cultural Systems in Pre-Islamic Poetry: The Example of the Outlaws' Poetry

علي طهراوي *

د.عطار خالد ♣

تاريخ الإرسال: 2024/12/30	تاريخ القبول: 2026/04/27	تاريخ النشر: 2026/06/10

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في العصر الجاهلي نموذج الصعاليك، فتلك الأنساق تستمد وجودها من العوامل التاريخية، والاجتماعية، والحضارية، وغيرها من العوامل التي أسندت إلى الأنساق الثقافية التي توارات في تكوين هذه الأنساق في النصوص الشعرية في العصر الجاهلي، ومن بينها شعر الصعاليك التي تفسر طريقة تفكيره ودلالاته الأحادية المعنى بسبب رفضه لواقعه، والتهميش، والإقصاء من البنية المجتمعية للعرب في العصر الجاهلي معبرا عن الآثار الناجمة عن تلك الفجوة المجتمعية التي جعلت منهم أناس كسروا طرق الثوابت القبلية السائدة.

الكلمات المفتاحية: العصر الجاهلي، الأنساق الثقافية، شعر الصعاليك.

Abstract:

This study aims to uncover the implicit cultural systems in the pre-Islamic era, using the model of the outlaws (Sahaliq). These systems derive their existence from historical, social, and civilizational factors, among others, which have contributed to the formation of these cultural systems as

* جامعة تيسمسيلت، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة،

tahraoui.ali@univ-tissemsilt.dz

♣ جامعة تيسمسيلت، attarkhaled100@gmail.com

reflected in the poetic texts of the pre-Islamic period, including the poetry of the outlaws. This poetry explains their way of thinking and its singular meanings due to their rejection of their reality, marginalization, and exclusion from the social structure of the Arabs in the pre-Islamic era. It expresses the consequences of the societal gap that led them to break the prevailing tribal norms.

***Key words**: The pre-Islamic era, cultural frameworks, and the poetry of the outlaws.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: علي طهرواي، tahraoui.ali@univ-tissemsilt.dz

مقدمة:

عكس الشاعر العربي في العصر الجاهلي حياة الإنسان البدائي مبرزا نمط حياته القائمة على صراع الإنسان مع البيئة الصحروية العربية القاسية، وكذا صراع الإنسان مع أخيه من ناحية أخرى، فصراع الإنسان مع البيئة التي تعتمد على الرعي وتربية الإبل، والتي تفرض على أهلها الرحلة الدائمة بحثا عن مناطق جديدة.

وقد صور الشعر الجاهلي هذه الحياة بمظاهرها كلها، وذلك من خلال وصف الصحراء والرحلة، والمكان، والزمان، وكذا تصويره للمرأة، والحيوانات، والأساطير التي تعد محورا أساسيا في بنية القصيدة العربية في العصر الجاهلي، وليست المقدمة الطللية، فحسب بل الوقوف على أنساق ثقافية عديدة تحرك المشاعر، والعواطف، واستحضار الأحزان التي أرقت روحه.

بالإضافة إلى تصوير الشعر الجاهلي الحياة السياسية، والاجتماعية للقبيلة، والنظام السائد فيها من عادات، وتقاليد والتي ولدت بدورها أنماط جديدة من الشعر من بينها شعر الصعلكة كظاهرة اجتماعية برزت نتيجة التمييز العنصري الذي طال طائفة من الشعراء، فثاروا ووقعوا ثورتهم بشعر ينادي بالحرية والإنعتاق من قيود القبيلة، ومن سيطرة الضمير الجمعي.

1/ أهداف الدراسة:

تكمن أهداف الدراسة في محاولة وضع تصور عام ومنطقي لدراسة الأنساق الثقافية في الشعر الجاهلي من خلال توضيح تجلياتها من رموز، ودلالات لغوية دالة عن مشاعر، وأحاسيس، بالإضافة للتطرق إلى شعر الصعاليك، والتغيرات التي أحدثها في الشعر الجاهلي.

2/ إشكالية الدراسة:

- ✓ ماهي تجليات الأنساق الثقافية في الشعر الجاهلي؟
- ✓ ماهي التغيرات التي أحدثتها الصعلكة في الشعر الجاهلي؟

الماهية:

تنوعت التعريفات التي ناقشت مفهوم النسق الثقافي فقد عرفه "**تالكوتبارسونز**" بأنه نظام ينطوي على أفراد مفتعلين تحدد علاقاتهم بعواطفهم، وأدوارهم التي تنبع من الركوز المشتركة والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق، ومن هنا يتضح أن مفهوم النسق أوسع، واشمل من مفهوم البناء الاجتماعي. ويدل النسق في المعاجم العربية على التنسيق والتنظيم.[1]

ويعد النسق الثقافي من أهم مفاهيم النقد الثقافي الذي يوصف بأنه ممارسة، أو تفاعلية بين الوحدات الثقافية من نصوص فكرية أو شعرية، وتعني ممارسة قول، أو فعل تؤدي إلى معنى، أو دلالة معينة.[2]

وفي سياق آخر يعرف النسق الثقافي بأنه مصطلح يجري استخدامه في الخطاب العام، والخاص داخل نظام واحد، وقد تأتي مفاهيمه مرادفة لمعنى البنيوية للنظام، كما نجد أن النسق الثقافي من حيث الدلالات المضمرة من طرف مؤلف لكنه فعل كتابة، أو نقل منغرس في ثنايا الخطاب، ومؤلفه الأول هو الثقافة التي تتحرك بشكل مستو، ويستخدم فيه أشكال كثيرة من المجاز. فالأنساق الثقافية هي نتاج تاريخي راسخة وعلامتها اندفاع الجمهور المنطوي على تلك الأنساق.[3]

وتحمل الأنساق الثقافية المضمرة وسائل مشفرة ترتكز على الإيديولوجيا فالأديب يهدف من خلالها إلى تمرير أفكار معينة تكون عادة متبناة من قبله. فالايدولوجيا تشكل مسارا جيد لتأكيد سيرورتها النصية، ونتاجها النسقي.[4]

وعليه يمكن وضع تعريف إجرائي شامل لكل المفاهيم السابقة " إن الأنساق الثقافية يعبر عنها الأديب بكل حرية دون قيد إذ يتمكن التدخل بالنسق دون ملاحظة الرقيب الثقافي المؤسساتي ويتخذ من النص المضمر وسيلة للإفصاح عن المكبوتات المعارضة للنسق المهيمن.

1/ النسق الثقافي: هو وحدة ثقافية دالة داخل حقل من الوحدات بشرط أن تتطابق مع العلامات التي تم وضعها أي أنه قراءة، وتحليل العلاقة بين النص، والمجتمع الذي ينتمي إليه متبعا مضمرات الثقافات ودلالاتها.

2/ النسق الاجتماعي: بحيث يوصف المجتمع بأنه نسق اجتماعي عام يتيح مجموعة من الأنساق الفرعية تابعة له، وينتج عنه عدة انساق تهدف إلى تنظيم الحياة المجتمعية، ومن بين الأنساق الاجتماعية الفرعية هي:

أ/ النسق الاقتصادي: يكون فيه المجتمع متكيفا مع البيئة من خلال تنظيم الإنتاج.

ب/ النسق السياسي: حيث يرسم فيه المجتمع أهدافه وتوجهاته السياسية من خلال تعبئة الموارد داخل النسق السياسي، وكذا التفاعل بين مؤسساته الرسمية وغير الرسمية من أجل تحقيق الأهداف العليا والدنيا، ويبقى الهدف الأساسي هو البقاء في السلطة.

ج/ الروابط الاجتماعية: هي مجموعة من النظم التي تعمل على إقامة علاقة بين الأفراد فتحقق بذلك نوعا من التنسيق اللازم لضمان الاستمرارية، والبقاء دون فوضى.

د/ التنشئة المجتمعية: حيث يتم تقل ثقافات المجتمع إلى الإفراد، وبذلك يصبح الفرد عاملا أساسيا في خلق الدافعية للسلوك الملتزم بهدف الحفاظ على نمط المجتمع السائد.[5]

تجليات الأنساق الثقافية المضمرة في الشعر الجاهلي:

إن الحديث عن تجليات الأنساق الثقافية المضمرة في الشعر الجاهلي خاصة تأخذ أبعاد كثيرة ترتبط بالجانب النفسي، والبنية المجتمعية، والطبيعية للشاعر ويمكن تفصيلها فيما يلي:

الأنساق العامة:

1/ نسق الأنا والآخر:

أ/ نسق الأنا: هي الذات العارفة لنفسها، والمتفاعلة مع غيرها بشكل علائقي بين الأنا والآخر بحيث يصبح الأنا متوسط، والآخر قطبا وسيطا بين الذات العارفة، والذات المنطوية، وهنا تبرز العلاقة بين الأنا والآخر التي تتسم بطابعين وهما:

- ✓ **الطابع الأول:** هو قطب محوري في العلاقة المركبة، والموضوع موضوعه والآخر يرجع إليه في كل شيء.
- ✓ **الطابع الثاني:** اعتبار الأنا وحدة هذه العلاقة الفاعلة بين بنية الأنا بصفتها واعية تعبر عن نفسها والآخر ذات أخرى وبهذا وتكون العلاقة بينهما ذاتية أي أحداهما يكمل الأخر.[6]

ب/ نسق الأنا في السخرية: من المؤكد أن الشاعر شخص لديه تجارب في الحياة، ومنها تعلم الكثير من العبر، والحكم، والصبر إذ تحدى الصعاب من أجل بلوغ ما يسعى إليه.

ج / نسق الأنا في المدح والحماسة: يتغنى معظم الشعراء في العصر الجاهلي بمدح أنفسهم وكذا مدحهم لأسيادهم، وأشراف القبائل التي ينتمون إليها مما أعلى شأنهم مثل شعر عنترة بن شداد فحضور شخصيته واضح في أغلب قصائده خاصة فيما يتعلق بالفروسية، والبسالة وكذا حبهم للمغامرة.[7]

2/ نسق القلق والاضطراب:

عاش الإنسان الجاهلي في بيئة صحراوية قاسية، وبسيطة تكيف مع متطلبات الحياة آنذاك، فأرتبط ارتباطا قويا وهذا ما خلق في نفسه شعور القلق والاضطراب والنزوع إلى التمرد في أغلب الأحيان فكان قول الشعر الميدان الوحيد للتجسيد، وترجمت أحاسيسه المرهفة في بيئته المتضاربة من جميع النواحي، وتمثلها أدق التمثيل، وأبرز من مثلوا ظاهرة القلق والاضطراب هم شعراء الصعاليك الذين اتخذوا من أشعارهم ملاذا للتعبير عن واقعهم، والمأساة التي تعرضوا إليها من قبل مجتمعهم، فنجدهم دائما في حالة قلق وهلع إزاء وضعهم.[8]

3/ نسق الرمز والأسطورة:

ويبدو أن العرب لا يختلفون كثيرا عن غيرهم من الشعوب التي تؤمن بوجود كائنات أسطورية وروحية. حيث كان العرب قديما يؤمنون بفكرة الجن، والآلهة التي تسيطر عليهم. وقد تأثر الإنسان الجاهلي بكل الظواهر الطبيعية الكامنة، فكان يستخدم الرموز كالحيوانات، والنباتات، والجماد، والطيور ويطبقها في نصوصه الشعرية، ومن الأساطير التي كانت حاضرة بقوة في الحياة الجاهلية كانت "أسطورة **الثور الوحشي"**، وهي تصور كل حركاته، وذكر أفعاله ووصف الضعن والراحلة وتقييد الأوابد، ويسرد الإنسان هذه الظواهر لتجسيد الصراع بين الحياة والموت، أو الصراع بين الحياة والمصائب التي تأتي من مصير غير متوقع.

وتتكرر هذه الأجزاء في قصائد الرحلة والأشعار الرثائية، لتبين مدى رؤية الشاعر للميول المصيرية في الحيوانات بقدر ما يرى في الإنسان اللغة والبنية الشكلية للوحة لا تفصلهما عن البنية العاطفية التي يستخدمها الشاعر في لوحات الصيد الأخرى.[9]

4/ نسق مشهد الحيوان:

مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية يحمل الصنعة الجاهلية بفطرة هادئة تقابل الواقع ببداهة دون أن يجعل الشاعر لذلك تفسيرا إلا ما توحيه مشاهدة الطبيعة الحية، ولهذا آثر التحدث عن ذلك بصور شعرية دون الولوج في بيان قيمتها الدلالية،

ولكن بعض الشعراء ركب أجزاء صورته الشعرية على نحو غريب ربما كان أقرب إلى الخرافة، وإن كانت أجزاؤها تلك مستمدة من واقع القوم كالغول والعنقاء.

من هنا يختلف مشهد الحيوان من شاعر إلى آخر باختلاف تجارب الشعراء ومواقفهم النفسية والفكرية، فتلك التجارب أضافت إلى مشاهد الحيوان ملامح جديدة فوق ما هي عليه في الأصل القائم على حياة البداوة.

إن مشهد الحيوان صدى للواقع وحالة شعورية ونفسية، وصورة من مرحلة تاريخية لا يمكن إغفال معطياتها. ومن هنا لم يكن مشهد الحيوان مسخرا لهدف إنساني فحسب، وإنما كان من الأسباب التي تؤلف بين أجزاء القصيدة منهجا فكريا. فأي مشهد من مشاهد الحيوان كان مفعما بالأشكال الفنية التي أرست قيما لا تحصى، ويعود هذا إلى تشابه المصادر في حياة البداوة.[10]

على سبيل المثال ارتبطت صورة القطا بسرور ومفازة، لذلك أصبحت القطا مرشدا، ومعلما لموارد المياه فيه رمزا للتفاؤل، عندما تم العثور على الأشخاص الذين فقدوا في الأرض القاحلة عن العالم بعد أن كانوا خائفين ومقتنعين بالدمار، وهكذا تجسد القطا الروح التي تحافظ على الحياة في وسط البادية المضطربة لقول النابغة الذبياني:

حذَّاء مدبرة سكَّاء مقبلـة للماء في النحر منها نوطة عجب

تدعو القطا وبه تدعى إذا انتسبت يا صدقها حين تلقاها فتنتسب

ولا تستطيع كلمات قليلة أن تحيط بمشاهد الحيوان كلها على تعدد الإبداع فيها باختلاف صورها وأنماطها، فمشهد الذباب عند عنترة يظل فريدا في بابه حتى صار من التشبيهات العقم، وراحلة الشعراء التي كانت صورة من واقعهم مثلت وحدة فنية واتساقا لموضوعاتهم التي عالجوها في قصائدهم.[11]

5/ نسق صورة المرأة:

كانت صورة المرأة في مجتمعات ما قبل الإسلام، وغيرها من المجتمعات القديمة أدنى من صورة الرجل في هذه المجتمعات، تم الترويج لهذه الصورة النمطية من خلال

ثقافة تلك الأوقات وعززتها النصوص الثقافية الأدبية، وغير الأدبية، فكان العرب يحبون الرجال، ويفضلونهم على النساء لأن الرجال كانوا جنودا، وفرسان، وأوصياء على القبيلة، ، ومن ناحية أخرى كانت النساء عديمة الفائدة في الحرب، وعبئا على القبيلة، وهدفا للعدو، واعتبرن لعنة منذ ولادتها.

ولعل أحد الأمثال التي لا تخلو من السخرية، وتثبت دونية المرأة هو أن هناك مثل يقول (تنهد، تهانينا) لأولئك الذين يريدون تهنئة المرأة إذا أنجبت فتاة تظهر الفتاة في هذا المثل كعنصر مهم لا يندمج مع نسق المجتمع، لذلك يتم الاحتفال بها ليس بمناسبة ولادتها، ولكن من أجل المنفعة التي تنشأ من وجودها، ودورها المستقبلي.

6/ نسق المكان والزمان:

إن جميع العناصر المكانية في شعر الجاهلية، بما في ذلك الأشكال الطبوغرافية، والأعلام الجغرافية، تعمل كأشكال تعيد تشكيل الواقع دون أن تحاكيه تماما، وهي تكشف عن مواقف الشعراء من الحيز، والفضاء، وعن دلالات المكان وأنماط اشتغاله في نسيج الشعر الجاهلي.

ومع ذلك فإن هذه الدلالات لا تقتصر على الحدود المحددة للنموذج، فهي عناصر مرتبطة بالأماكن التي تتجاوز الأشكال الطبوغرافية، والأعلام الجغرافية بما في ذلك أسماء المواقع والجبال والفيافي والوقائع التي دارت بين القبائل وتسمى أيام العرب في الجاهلية مثل دارة مأسل، والبسوس، وداحس والغبراء، والتي يمكن أن تساهم في بناء مساحة ومكان خياليين لكن هذه الدلالات العديدة للفضاءات المحددة يمكن استخدامها لتوسيع رمزية هذه الأقطاب المكانية والزمانية.

الثنائيات الضدية في الشعر الجاهلي:

تتجلى الثنائيات الضدية في الشعر العربي بصورة واضحة، فهي تأخذ بعد فلسفي حديث وإن كان العرب قد عرفوه، وتكلموا عنه أثناء نقدهم لأشعار السابقين تحت مسمى الطباق الذي يعني التقابل سواء بالإيجاب، أو السلب، فقد ذكره قدامى الشعراء. لقول زهير:

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

والثنائية الضدية هي القول بازدواجية المبادئ المستقرة للكون كثنائية الأضداد، أو تعاقبها، وهي كون الطبيعة ذات مبدأين وما يقابلها باعتبار أن الطبيعة ذات مبدأ واحد أو عدة مبادئ وتقدم الثنائية بوصفها فكرة فلسفية على أن ثمة قدرة على الربط بين الظواهر التي تبدو منفصلة، فالتضاد رابطة مثل التماثل والتناقض رابطة تعني النقيض، فوجود النور ينفي وجود الظلام لذا يدخلان في علاقة تناقض.

1/ نسق الحياة والموت:

نسق الحياة والموت من الثنائيات الضدية المعنوية التي تجعل الإنسان يتخذ من الحياة والموت ثنائية ملازمة مرهونة بها حياة الشخص الممدوح تجعل طعم حياته وموته مقترنة بمصير ذلك الإنسان الذي يشكل رمزية مرتبطة بكيانه ووجوه، وهذا موقف يستدعي نسقا ثقافيا نمطيا في بنية الشعر الجاهلي لذا يقول الشاعر النابغة الذبياني في رثاء علقة بن علاثة العامري:

فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت فما في حياتي بعد موتك طائل.

فالشاعر هنا ربط حياته بحياة الممدوح، وأنه لا فائدة من عيشه بعده، وهذا يدل على مكانة المرثي في قلب الشاعر، ومن هنا نلمح في نبرة الشاعر وجعا عميقا يختبئ خلف تلك الصور ويمكن أن نعتبرها مجرد أماني تقلها أنفاس ملتهبة بحسرة عن فقدان الممدوح.[12]

2/ نسق السلم والحرب:

تعد الحرب مظهرا من مظاهر الحياة العربية الجاهلية إذ لا تكاد تخلو قصيدة من تصوير الحروب التي دارت رحاها بين القبائل، وهذا الأمر يدل دلالة واضحة عن إدراك قيمة التصوير الفني في النص الشعري الجاهلي، حيث يرقى الشاعر بالمعاني الحاسمة وشحنها بالدلالات المؤثرة في نفس المتلقي ويرتفع الشاعر بمستوى الإيقاع الداخلي والخارجي للخطاب تاركا أثر موسيقيا جميلا.

إن حضور الحرب بهذا الزخم الهائل في الشعر العربي راجع إلى أنها كانت سلوكا تعارفت عليه القبائل العربية، ونظام خاص يلتزم به الجماعات، والأفراد التي تحكمه القوة، والحمية الجاهلية التي ساهمت في بروز الصراعات، والخلافات بين القبائل، وكثيرا ما تتحول إلى حروب طاحنة يصعب التكهن بنهايتها.

وقد سيطرت فكرة الحرب على نمط الحياة الجاهلية إلى درجة اعتبروها منهجا مقدسا لا يبتعد عنه الفرد، إذا ما تعرض قومه إلى مكروه. ولأن الشاعر ابن بيئته ولسان حالها والمنافح عنها، لذلك يحاول إيصال صوت قبيلته، ويحمل رسالة تمثلها أمام القبائل.

ولقول الشاعر عمرو بن كلثوم في قصيدته إذ يفتخر بنفسه الأبية التي ترفض الظلم والمذلة والانقياد ويجد المقام مناسبا للمناظرة، وتعداد الخصال، والفخر بالقبيلة.

نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدي لاعبينا

علينا البيض واليلب اليماني وأسياف يمقمن وينحنينا

حيث يرى الشاعر أن السيوف لا تفارقهم حلا وترحالا، وهو بذلك يفاخر عمر بن هند وأن التغلبيين أهل للطعان، والحرب كابر عن كابر، لاسيما أن الحياة في الجاهلية قائمة على المناجزة، والمغالبة وهي نسق وجودي لذلك، فالسيف لا يفارق الشخص مثل ظله، وهذا يدل على صورة بلاغية قائمة على التشبيه في كثرتها وسرعتها.

فالمجتمع الجاهلي شهد حروبا كثيرة سجلها التاريخ العربي، ودونها الشعر في أنساق سياسية وثقافية، وبهذا يظهر الشاعر حياة الجاهلية وتجاربه في إدارة الأمور، حيث عايش الحروب، وما تركت من بؤس وشقاء ودمار، فقد عرف قومه بالمحكمة ورجاحة العقل، فالشعراء كانوا يدعون إلى السلم والسلام في تسير وشؤونهم السياسية والإنسانية بالعقل، والتخلي عن فكرة الحرب، والرجوع إلى السلم والسلام بين القبائل.[13]

3/ نسق الحضوروالغياب:

يتخلل شعر حركة الطلل عدد من الثنائيات التي تخلفها المتعارضات مثل الجفاف/ الخصوبة/ الفرح الحزن، الغياب/ الحضور، وغيرها من الثنائيات الأساسية في الشعر الجاهلي، والصراع بين طرفي الثنائية بحيث يظهر الإنسان في صورة الزمان العدو الأكبر للجاهلي.

فنجد شعر امرئ القيس لم يتوقف شعره عند الشكل اللغوي، فحسب بل وظف الثنائية الضدية بشكل كبير في أشعاره، ومنها ثنائية الحضور، والغياب التي اختزلها في المقدمة الطللية التي احتوت على مفاهيم ضدية.

قفا نبك من ذكرى حبيب منزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

فإن لفظة "قفا" ثنائية ضدية توضح حقيقة الموت، والحياة وفقا لبنية لغوية، فهو يستحضر من كان قريب له، ويشعر بالحزن، والأسى على فراقهم مستعملا ضدية الحضور، والغياب والأنا الداعية للوقوف والبكاء على من رحل، وغياب الآخر المفقود من الزمن الحاضر، فكانت ثنائية قفا/ نبك دعوة صريحة للوقوف للبكاء حزنا، وتجلى ذلك في رمزين هما: الأول تمثل في نفس الشاعر الفاقدة، والثاني الدموع المطهرة بجذب الذات العطشى للوئام والحب والسلام.[14]

الأنساق الثقافية المضمرة قراءة في شعر الصعاليك:

مفهوم شعر الصعاليك:

تشير لفظة الصعلوك في اللغة العربية إلى الإنسان الذي لا يملك شيئا، أما في معجم لسان العرب، فالصعلوك هو الإنسان الفقير الذي لا مال له، وقد أخذت معان واسعة كالفقر واللصوصية وقطاع الطرق.

إن القارئ للتاريخ في العصر الجاهلي من خلال الدراسات المتخصصة بهذا النوع من الدراسات نجدها دائما تصفها بطبقة الفقراء التي قست عليهم الحياة، ولم يجدوا

مأوى لهم. وقد بدأ الحديث عن هذا النوع من الشعر بنحو قرن ونصف إلى قرنين قبل الإسلام كأقصى حد، فالصعلكة ليست عارضا، بل هي ظاهرة لازمت المجتمع العربي في العصر الجاهلي لفترات طويلة من الزمن تبعا لظروفه القاسية.[15]

دو افع شعر الصعاليك:

ويمكن تقسيم دوافع شعر الصعاليك إلى عدة أسباب رئيسية:

1/ الفقر: بالرجوع إلى أخبار الصعاليك فإن الفقر هو الصفة البارزة، والمميزة لدى شعراء الصعاليك ومن بينهم عروة بن الورد الملقب بسيد الصعاليك إذ يقول:

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقر

و أبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير

فهذه الفئة من الناس المهمشة من طرف المجتمع جعلت منهم أناس متمردين على أسيادهم والسلطة.[16]

2/ الثورة على و اقعهم الاجتماعي: ويقصد بها المعتقدات، والأعراف السائدة التي يعتبرونها ظالمة لهم والتوجه إلى الطبيعة لبساطتها بحيث يعودون للعيش مع الحيوانات أفضل بكثير من العيش مع قومهم وسط الظلم، والقهر الذي يسلط عليهم.

3/ الفخر: يتصف الصعاليك بالشجاعة، وحبهم للمغامرة، والموت في سبيل تحقيق أهدافهم، وهذا راجع لطبيعة حياتهم، فهم كانوا دائما في حالة مطاردة، ومن مميزاتهم أيضا الخفة، وسرعة الحركة، والخبرة بدروب الصحراء.

4/ رفض الذل: وهذه القيمة تعني لهم الكثير، فقد تطرق إليها الشعراء في شعرهم، ورفضهم إياها حتى لو كان في سبيل الحصول على لقمة العيش، والخضوع لأسيادهم.

5/ الإيثار والكرم: تميز الشعراء الصعاليك بالمثالية، والأخلاق الرفيعة التي لا تقل مثالية على غرار عنترة بن شداد العبسي، حين يتعلق الأمر بإيثار الآخرين على أنفسهم،

وبذلهم للفقراء، كما تحولت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية لأنها قائمة على السلب، ونهب ممتلكات أسياد قبائلهم.[17]

شعر الصعاليك في العصر الجاهلي:

حينما نقارن شعر الصعاليك بشعر الشعراء الجاهلين المعروفين من أمثال شعراء الفحولة مثل أمرئ القيس، وجميل بن معمر، كعب بن زهير، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم ...، فهم قلة مقارنة بالنسبة إلى شعرهم، ويرجع ذلك إلى تمردهم على الأعراف السائدة في مجتمعهم، ورفضهم لواقعهم. وقد اختلفت أشعارهم بتنوع المصادر التي تم اعتمادها من طرفهم.

1/ مصادر شعر الصعاليك:

أول مصدر هي القبيلة في حد ذاتها ذلك أن شعراء الصعاليك قبل أن يتخذوا من الصعلكة حياة لهم عاشوا مع قبائلهم حياة القبيلة، إذ ليس مما يمكن تصوره أن يبدأ هؤلاء الصعاليك حياتهم في التصعلك منذ أن رأت أعينهم نور الحياة، وقد عاشوا فترة حياتهم مع قبائلهم، ومثال على ذلك قيس بن الحدادية الخزاعي الذي شارك قبيلته اجتماعيا، وفنيا مشاركة قوية، وخاض معهم حروب، وتغنى بهذا كله في شعره، فمن الطبيعي أن تحرص القبيلة على هذا الشعر وترويه على مسامع المجالس والنوادي.

أما المصدر الثاني، فهي القبائل التي استجار بها الخلعاء من الشعراء الصعاليك ولم تكن استجارتهم بها للمكوث والانتماء إليها بقدر ماهي عقد أحلاف للحامية إذا توجب الأمر. والمصدر الثالث هو الصعاليك أنفسهم، فقد روى الصعاليك شعرهم، وتغنوا به في كل مناسبة لأنه صورة من حياتهم.[18]

2/ مواضيع شعر الصعاليك:

من المواضيع التي تطرق إليها شعراء الصعاليك في قصائدهم نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

أ/ المراقبة: واحتوت قصائد الصعاليك على قصص عنهم يتربصون بأعدائهم، ومغامراتهم، قادمين من مواقع جغرافية غير محددة، لكنها تشير إلى طبيعتهم بأوصاف دقيقة، لذلك أطلقوا عليهم اسم "المراقبين" وأعلى الجبال والقمم هي أماكن اختبائهم. يتربصون في الجبال بحثا عن الضحايا ويخططون للتجسس على أهدافهم حتى تتاح الفرصة لمداهمتها، وغالبا ما يختارون تنفيذ خططهم ليلا، كما يقول الشنفري في إحدى قصائده كما ورد في القصيدة أنه لجأ ذات مرة إلى أحد الرعاة:

ومرْقَبَةٍ عَنْقاءَ يَقْصُرُ دونَها أَخو الضِّرْوَةِ الرِّجْلُ الْحَفِيُّ الْمُخَفَّفُ
نَعَيْتُ إلى أَدْنى ذُراها وَقَدْ دَنا مِنَ اللَّيْلِ مُلْتَفُّ الْحَديقَةِ أَسْدَفُ
فَبِتُّ على حَدِّ الذِّراعَيْن مُجْذِيا كَما يَتَطَوّى الأَرْقَمُ الْمُتَعَطِّفُ
وَلَيْسَ جَهازي غَيْرُ نَعْلَيْن أَسْحَقَتْ صُدورُهما مَخْصورَةً لا تُخَصَّف
وملحفة درس وجرد ملاءة إذا أَنْهَجَتْ مِنْ جانِبٍ لا تُكَفَّفُ

وفي هذه الأبيات صعد الشنفري إلى قمة الجبل وأوصله إلى نقطة لا يستطيع غيره الوصول إليها، لكي يستقل بشخصيته وفردانيته، وذاتيتة الشخصية، لذلك فإن هذه الشخصية لا تقوم على المحتوى أو على حماسته المستمرة على العكس من ذلك، فهو من الناحية الرسمية، يعتمد على الاستقلال الشخصي.

ب/ التوعد والتهديد: ذكر الصعاليك في شعرهم، وتحدثوا عن التوعد، والتهديد في كل من كان سببا في تعاستهم وهجرانهم قبائلهم.

ج/ موضوع الحيوان: يتجه الصعاليك إلى الجبال، والصحاري المنعزلة، والوديان المرعبة مما يدفعهم لمواجهة الوحوش من ذئاب، وضباع ضارية، وغيرها، أبدعوا في تسمية هذه الوحوش، ووصفوها بأوصاف مثيرة كانت صورا فنية حسية، ومن الطبيعي أن يظهر الوحش بقوة في قصائد الصعاليك، لأنهم كانوا على دراية به، واستأنسوه، بل وكان جزء منه يتعلق بهم وبشخوصهم فهو صورة من متعدد أو تلازمية البيداء والوحوش كما قال الشنفرى:

وَلِي دونكم أَهْلون: سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرْقط زُهْلولٌ وَعَرْفاءُ جَيْأَلُ

هذا اعتراف صريح لا لبس فيه من قبل الشنفرى الذي يربط نفسه بمعرفته بالذئاب والضباع والوحوش البرية التي رافقته في تجواله ولديه قصص ومحادثات حميمة معها.[19]

إن علاقة الشعراء الصعاليك بالوحش، تكاد تكون علاقة ألفة واستئناس، ولأنهم أنسوا الطبيعة، فلابد لوحوشها أن تكون كذلك، وما ورود الوحش بمختلف أنواعه الذئب، والضبع، والنمر، والعقاب في شعرهم، ووصفهم له بأوصاف دقيقة واتخاذه أهلا وعشيرة إلا حتمية تعايشية.

وهذه الصعلكة دلالة على خرق محرمات ونواميس القبيلة وحرماتها، ومقدساتها وطقوسها، والتمرد على سلطتها، ونبذ هيكل تنظيمها، ومؤسسات مجتمعها، ومنه البحث عن مشروع مجتمع جديد، لا تذوب فيه فردية الإنسان، ولا تضمحل شخصيته في رموز القبيلة وأسيادها، ولذا نجد في شعر الصعاليك معظمه النفور من ضمير (هو) وصيغة الجمع (نحن)، إلى ضمير (الأنا) وإن استعملت صيغة الجمع، فليس للذوبان في الجماعة، وإنما قصد التجمع ولم الشتات.

ولكن الصعلوك في آخر المطاف يبقي على تفرده وفرديته وذاته بجسده وغريزته وانفعالاته، وليس ذلك الإنسان الذي تضبطه قوانين الآخر، فينصاع لأوامره ونواهيه، فيحدد بمكان ويقيد بزمان وإنما ينشد حركية الزمان، واستمراريته نحو المستقبل مصيره مرتبط بالطبيعة وليس بالقبيلة فهو انفصام مكاني وتميز عن الآخر.

خاتمة:

مما سبق عرضه يمكن القول أن الأنساق الثقافية المضمرة في الشعر الجاهلي وظفت رموز ودلالات ثقافية وطبيعية الذي حددها الطابع الجغرافي للبيئة العربية والنظام المجتمعي لها خصوصا أن الشاعر هو ابن بيئته يأثر فيها، وتأثر بها فتطرق إلى أنساق كثيرة في شعره، وكذا الثنائيات الضدية المعنوية واللفظية معبرا عن واقعه.

وفي ظل هذا الصخب والتراكمات التي ولدها المجتمع الجاهلي في نفوس الأفراد جعل منهم فئات تثور على العادات، والتقاليد، وكذا التجرد من الانتماء للقبيلة، والتجرد أيضا من الزمن لتأسيس الفردية المتصفة بالخصوصية والذاتية ذلك (الأنا) يرنو إلى المستقبل بنظرة تفاءل نتيجة محاكاته للطبيعة سعيا للتخلص من(النحن) المثقلة بكل التراكمات الزمانية والمكانية، وذلك من خلال حبه للمغامرة المرهون بالربح والخسارة، أو الموت أو الانتصار.

ويمكن أن نستخلص مما سبق:

- ✓ يعتبر شعر الصعاليك مصدرا معجميا لصانعي المعجم، والدلالة، لأن لغتهم يغلب عليها التمرد والثورة على نظام قبائلهم كما أن الأنساق الثقافية متوارية فيه.
- ✓ شعر الصعاليك مرآة عاكسة لبيئة الشاعر الجاهلي المتمرد بكل من فيها، من أثار رصدتها تفاصيل حياة الشاعر الصعلوكي.

قائمة الهوامش:

[1]- جمال مجتاح، محاضرات الأنساق الثقافية المضمرة وقضايا الهامش، محاضرة القيت على طلبة السنة، د س ن.

[2]- أحمد حلمي، "الانساق الثقافية المضمرة في لامية العرب للشنفري الأزدي"، مجلة الأزهر26(2022): 10.

[3]- حبيبة الأعور، مسعودة بوزيد، " الأنساق الثقافية في شعر المتنبي" (مذكرة ماستر، جامعة قاصدي مرباح، 2019/2018)، 14.

[4]- خولة صالح، "الأنساق الثقافية في رواية طيل الليل لعمارة لخوص أنموذجا" (مذكرة ماستر، جامعة 08 ماي 1945 قالمة، 2021/2020)، 28.

[5]- مريم بعيش، ليندة ملاح، "الأنساق المضمرة في رواية هايد يدجر في المشفى لمحمد بن جبار" (مذكرة ماستر، جامعة مولود معمري، 2019/2018)، 28-30.

[6]- حاتم زيدان، العيد جلولي، " جمالية المراوغة والتوظيف الضمائري للأنا والآخر عبر اللغة الشعرية دراسة في قصائد مختارة من ديوان مسقط قلبي لسمية منحش"، مجلة الأثر29 (2017): 196.

[7]- نفس المرجع، 198.

[8]- نصيرة عواري، "تجليات القلق في شعر عروة بن الورد قراءة نفسية"، مجلة الباحث 12 (د س ن): 02.

[9]- عادل بوديار، "أسطورة الوحش في القصيدة الجاهلية بين الفن والمعتقد"، مجلة النص01 (2021): 06.

[10]- الموسوعة الحرة، "نسق مشهد الحيوان"، اطلع عليه 06 مارس 2024،

https://ketabonline.com/ar/books/67239/read?part=1&page=10840&index=5964204/5964208

[11]- الموسوعة الحرة، مرجع سابق.

[12]- صلاح أحمد صالح، "الثنائية الضدية في شعر الحطيئة"، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية42 (2019): 05.

[13]- هدى عماري، "تجليات ثنائية الحرب والسلم في النص الشعري مقاربة الأنساق المضمرة لنماذج مختارة"، مجلة إحالات 03 (2022): 02.

[14]- صلاح أحمد صالح، مرجع سابق، 07.

[15]- جمعة مصاص، " الصعلكة وصراع الذات في العصر الجاهلي مقاربة بنيوية"، مجلة لغة- كلام 01 (2024):07.

[16]- حسن سرباز، "نموذج الصعاليك وشعرهم في العصر الجاهلي"، مجلة أفاق الحضارة الإسلامية25 (د. س. ن): 03.

[17]- نفس المرجع، 06.

[18]- محاضرات شعر الصعاليك.

[19]- محمد برونة، "شعر الصعاليك قراءة في المتن، "مجلة الجزائرية في الانثولوجيا والعلوم الاجتماعية 46 (2009): 05